في تاريخ الأدب الفرنسي

بوفون وحديثه عن الأسلوب

للأستاذ أحمد أحمد بدوي

[بقية ما نشر في العدد الماضي]

ولا شيء كذلك أيضا يضاد الفصاحة الحقة إلا استخدام هذه الخواطر الضعيفة والبحث عن الأفكار السطحية المنحلة التي لا صلابة فيها ، والتي تشبه أوراقا معدنية مطروقة لا تنال اللمعان إلا بفقدان الصلابة ، وكلما أفرغنا من هذه الروح الضعيفة اللامعة في مؤلف قل نصيبه من القوة والوضوح والحرارة والأسلوب ، إلا إذا كانت هذه الروح هي الغرض من الموضوع ، ولم يكن للكاتب هدف إلا الفكاهة . إن فن الحديث عن الأشياء الصغيرة ربما كان أصعب من الحديث عن الأمور العظيمة(١) .

لا شيء أكثر مضادة للطبيعة السليمة إلا التعب الذي يتكلف للتعبير عن أشياء عادية أو شائعة بطريقة شاذة أو مبهرجة(٢) ، ولا شيء ينزل الكاتب عن درجته أكثر من ذلك ؛ ففضلا عن عدم الإعجاب به يلام لأنه قضى وقتاً طويلا في تركيب مقاطع جديدة لأجل ألا يقول إلا ما يقوله كل الناس . هذا عيب النفوس المتعلمة العقيم ، فلديها كلمات كثيرة ، ولا أفكار عندها . مجال عملها إذا الكلمات ، وتتخيل أنها كونت فكرا ما دامت قد رصت جملا . وأنها قد نقت اللغة في حين أنها قد أتلفتها بتغيير معناها . هؤلاء الكتاب ليس لهم أسلوب ، أو — إن شئت أن تقول —

(١) قال جريم Grimm : « من الواجب اعتقاد أن بيفون أضاف هذه الفكرة الأخيرة ليغري بعض زملائه الجدد الذين لا يستطيعون أن يدعوا أن لهم مجدا إلا مستمداً من أنفس ضعيفة براقة . ولكن فكرته ليست حقاً ، فإن فن الحديث عن الأشياء الصغيرة فن تخيل صغير ، ولا يتحدث عن العظائم إلا العبقرية . إني أفضل أن أقول شيئاً واحداً ممتازاً طول عمري على أن أطبع اثني عشر مجلداً في أمور صغيرة . وإني أتحدث عن هذه الأشياء التافهة التي تجلب للرجل شهرة ضعيفة عابرة لأن هناك سمواً أيضاً في الفكاهة ، لا يستطيع الحصول عليه إلا العبقرية » .

(٢) يبدو من الغريب أن بيفون يمقت بهرجة الأسلوب ، وفي الحق أنه لا يمقته إلا حين يخفي تفاهة الفكرة وضآلتها ، ولكنه يقبل حقاً — وكان هذا دأبه — أن يكون الأسلوب فخما مناسباً لعظمة الموضوع .

ليس لهم منه سوى الظل . إن الأسلوب يجب أن ينقش بالأفكار ، وهم لا يعرفون إلا أن يرسموا ألفاظاً .

للكتابة الجيدة إذاً يجب امتلاك ناصية الموضوع امتلاكا تاماً ، والتفكير فيه تفكيرا كافيا حتى يرى الكاتب بوضوح نظام عناصره ، ويكونها متتابعة ، ويجعل منها سلسلة متصلة فيها كل نقطة تمثل فكرة ، وعند ما يأخذ القلم يجب أن يعالج الموضوع بالتوالي مبتدئا بالنقطة الأولى من غير أن يسمح له بتركها ، أو أن يعنى بالعناصر عناية غير متساوية ، أو أن يضع عنصراً في مكان غير مكانه المحدد له والذي يجب أن يشغله . بهذا تبدو صراحة الأسلوب ، وذلك أيضاً هو الذي يجعل منه وحدة ، وينظم سرعته ، وهو فقط ما يكفي لأن يجعل الأسلوب دقيقا بسيطا متساوياً ، واضحاً ، حياً ، متتابعاً .

إذا ضم إلى هذه القاعدة الأولى التي يكفل تحقيقها الموهبة — الرقة ، والذوق ، والدقة في اختيار التعبيرات ، والعناية بألا تسمى الأشياء إلا بأكثر الأسماء عمومية(١) حاز الأسلوب نبلاً ، وإذا ضم إلى ذلك أيضاً الاحتراس من أول انفعال والاحتقار لكل ما ليس فيه سوى البريق والنفور الدائم من الإبهام والسخرية ، نال الأسلوب رصانة وجلالاً أيضاً . وأخيراً إذا كتب الإنسان كما يفكر ، وإذا كان مقتنعاً بما يريد أن يقنع به سواه ، أنتج هذا الاقتناع الذي يرتاح إليه الغير ، وصدق الأسلوب — كل آثارها ، على شريطة ألا يعبر عن هذا الاقتناع الداخلي بعبارات حماسية قوية ، وأن يكون دائماً ، التحرز أكثر من الثقة ، والتعقل أكثر من التحمس .

هكذا ، أيها السادة ، يبدو لي وأنا أقرؤ كم أنكم حدثتموني

(١) يقصد بيفون بالعبارة العامة هذه التي لا تبرز الصفات العرضية للأشياء ، ولكن صفاتها الأساسية الدائمة . وإذا كان يوصي باستخدامها فذلك لأنه يرى أن عمومية الفكرة تكسو الكلمة نوعاً من النبل ، ولكن هذه الوصية خطرة لأن استخدام الأسماء العامة يلقي بنا في الابهام والغموض ، ويجعلنا نضحي بالدقة المؤثرة ، وبالحياة في سبيل جمال كاذب ، وتترك الكلمة الحقة المستخدمة إلى عبارات طويلة ، فلا يقال مثلا : الأسد ، ولكن ملك الوحوش ، ولا باريس ولكن عاصمة النور ؛ وقد هزئ باسكال Pascal من هؤلاء الذين يتمون الطبيعة . والواجب أن نتبع رأى برويير Bruyère الذي يقول : (كل عبقرية المؤلف تنحصر في قوة تحديده وتصويره . يجب أن نصور الحق لتكون كتابتنا طبيعية قوية رقيقة .)

وعلمتمونى ؛ وإن روحى التى تلقت بشراهة إلهامات الحكمة هذه رغبت فى القفز والارتقاء إليكم ؛ وما أضيعها من جهود . إن القواعد ، كما قلتم أيضاً ، لن تحل محل الموهبة ، فهى إذا فقدت أصبحت القواعد غير مجدية . فالكتابة الجيدة هى التفكير الجيد والشعور الصادق والإبانة الممتازة مجتمعة معا ، هى أن يجتمع للمرء ذكاء وإحساس وذوق . وإن الأسلوب يتطلب اجتماع القوى العقلية وتمرينها . والأفكار وحدها تكون روح الأسلوب ، وتناسق الكلمات ليس إلا تابعا ، ولا يتعلق إلا بحساسية الأعضاء . ويكفى أن تكون لك أذن دقيقة نوعا ما لتتجنب تنافر الكلم ، ويكفى أن تمرنها وتكملها بقراءة الشعراء والخطباء ، لتندفع بدون وعى إلى تقليد التناسق الشعرى والأسلوب الخطابى ، لكن التقليد لم يخلق شيئا ، وتلاؤم الكلمات أيضا ليس أساس الأسلوب ، ولا قوته ، وكثيراً ما يوجد فى مؤلفات خالية من الأفكار[1] .

متانة الأسلوب ليست إلا ملاءمته لطبيعة الموضوع ، ولا يصح أن تنال قسراً ، بل تتولد تولداً طبيعيا من معنى الموضوع نفسه ، وترتبط غالبا باستخدام العبارات العامة التى تجذب إليها الأفكار . وإذا كان من المستطاع الارتفاع إلى أعظم الأفكار عمومية ، وإذا كان الموضوع فى نفسه عظيما ، ارتفعت النغمة إلى المستوى نفسه . وإذا قدمت الموهبة ما يكفى لأن يوضح كل غرض وضوحا تاما مع احتفاظ النغمة بهذا المستوى ؛ وإذا أمكن أن نضيف جمال التلوين إلى قوة الصورة ، وفى كلمة واحدة ، إذا كان من المستطاع أن نبرز كل فكرة فى صورة حية محددة تحديداً تاما ، وأن نكون من سلسلة الأفكار لوحة متسقة ، حية — لم تكن قوة الأسلوب رفيعة فحسب ، بل فى غاية السمو .

هنا ، أيها السادة ، يكون التطبيق أفضل من القاعدة ، والأمثلة تفيد أكثر من النظريات ، ولكن بما أنه لا يسمح لى أن أذكر القطع السامية التى كثيراً ما أثرت فى لدى قراءة مؤلفاتكم أجد نفسى مضطراً إلى الوقوف عند حد التأملات . إن المؤلفات

(١) فكرة عزيزة لدى بيفون ، فهو يرى أن الأسلوب يجب أن يغير نغمته تبعاً لطبيعة الموضوع ، وينبغى أن يرتفع أو يهبط إلى مستوى المواد التى يعرضها والموضوع الذى يعالجه ؛ وهكذا كان بيفون فخما عندما يكتب فى التاريخ الطبيعى ، وبسيطاً مستخدماً للألفاظ الشائعة فى رسائله إلى أصدقائه المقربين .

الجيدة الكتابة[1] هى وحدها فقط التى تنتقل إلى الخلف ، وإن كمية المعارف ، وطرافة الأعمال بل وجدة المكشوفات ليست ضمانات كافية للخلود[2] . وإذا كانت الكتب التى تحويها لا تتحدث إلا عن أغراض تافهة ، أو إذا كانت مكتوبة بلا ذوق ولا سمو ولا موهبة ، فسوف تبيد ؛ لأن المعارف والموضوعات والمكشوفات تسرق بسهولة وتنتقل ، بل وتكسب أيضا بأيد أكثر مهارة . إن هذه الأشياء خارجة عن الرجل ؛ أما الأسلوب فالرجل نفسه[3] وإذا فالأسلوب لا يستطاع سرقته ولا نقله ولا تحريفه ؛ فإذا كان رفيعا نبيلا ساميا صار المؤلف أيضا موضعا للاعجاب فى كل زمان لأنه لا شئ يبقى ويخلد سوى الحقيقة ، وإذا فالأسلوب الجميل لم يكن كذلك إلا بما يبرزه من عدد لا يفنى للحقائق ، وكل المحاسن العقلية التى به ، وكل التفصيلات التى يتكون منها حقائق بمقدار نفعها ، وقد تكون أغلى عند النفس الإنسانية من هذه الحقائق التى تستطيع أن تكون أساس الموضوع

إن السمو لا يستطيع أن يوجد إلا فى الموضوعات العظيمة . والشعر والتاريخ ، والفلسفة ، لها كلها موضوع واحد عظيم هو الإنسان والطبيعة ؛ فالفلسفة تصف وتصور الطبيعة ؛ والشعر يصورها ويزخرفها ، ويصور الناس أيضا ويمجدهم ويبالغ فى أوصافهم ، ويخلق الأبطال والآلهة . والتاريخ لا يصور إلا الناس

(١) لنفهم قيمة هذه الفكرة يجب أن نعود إلى التحديد السابق للكتابة الجيدة ، وهو : الكتابة الجيدة هي التفكير الجيد والشعور الصادق والإبانة الممتازة مجتمعة معاً .

(٢) علق على ذلك الأستاذ (رينيه نولت) بقوله : إن الأعمال والمعارف والمكشوفات ليست إلا مادة الكتاب الذى لا يأخذ شكلا إلا بالأسلوب الذى يبرز الأفكار ويثبتها .

(٣) هذه العبارة مشهورة ، وفى بعض الطبعات الأولى نجد بعض التحريف ، إذ فيها : Le style est de l'homme même أى أن الأسلوب من الرجل نفسه ، وقد يذكر المعنى فى كلمات موجزة هكذا : Le style, c' est l' homme أي أن الأسلوب هو الرجل ، وقد يظن معنى تلك العبارة أن الأخلاق الشخصية للكاتب تظهر ظهوراً قويا فى أسلوبه ، ومع أن هذه الفكرة صحيحة فى ذاتها لا يقصد إليها بيفون ، بل يريد شيئاً آخر ، ذلك أن مادة الكتاب نفسها ليست للمؤلف وحده بل هى مشتركة بينه وبين سواه ، أما الأسلوب فقط فلا يرتبط بغير الكاتب وهو ملك له ، فمثلا مادة كتاب التاريخ الطبيعى وما فيه من الملاحظات والأوصاف ليس ملكا خاصاً لبيفون ، بل كان له مساعدون آخرون لهم نصيبهم من هذه الملاحظات والأوصاف ، ولكن الذي اختص به بيفون ، والتى له وحده هو الأسلوب الذى صاغ فيه كل هذه المعلومات .